ودل على اتصال الممثل بالممنون ؛ فان الظواهر أجسام ، والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفس ، والظواهر أرواحها . . . . »[1]

وفى هذه العبارات ما يلقى الضياء على غايات السياسة الفاطمية الدينية والمعنوية وعلى وسائلها فى غزو الاذهان وحشدها من حولها ؛ ومن المعروف ان الخلافة الفاطمية كانت تتخذ الامامة الدينية شعارها ، ومرجع زعامتها الدينية فى العالم الاسلامى ، وشرعية ملكها السياسى ، فالدعوة الفاطمية التى كانت تلقى فى مجالس الحكمة الى الكافة والى الخاصة متدرجة فى مراتب من السرية والتحفظ طبقا لمكانة الأشخاص وأحوالهم الفكرية والاجتماعية ، كانت رغم صفتها الدينية ، ترمى فى النهاية الى أغراض سياسية ؛ ذلك أن الخلافه الفاطمية كانت ترى أن تحشد جمهور أوليائها ومؤيديها عن طريق الدين ، ومتى اجتمعوا فى ظل الامامة وتحت لوائها ، استطاعت أن تحركهم وان توجههم وفق مصالحها وغاياتها ، وان تعتمد على تأييدهم ونصرتهم كلما اقتضت الظروف والأحوال

والدول المحدثة التى تعتمد فى عصرنا على سلاح الدعاية ترمى الى مثل هذه الغاية ؛ فهى تتوسل بما لديها من أسلحة حديثة لغزو العقول والأذهان كالصحافة والراديو والسينما وغيرها لفرض مذاهبها السياسية والاجتماعية والدينية أحيانا على جمهور الشعب والحصول على تأييده ونصرته . ولم تكن الخلافة الفاطمية ، وهى من دول العصور الوسطى ، تتمتع بشىء من هذه الوسائل القوية المحدثة ، ولكنها مع ذلك استطاعت ان تنظم دعوتها بأساليب ووسائل مدهشة ، وأن تجنى كثيرا من الثمرات المادية والمعنوية ، بل لقد كان قيام الدولة الفاطمية ذاته نتيجة من نتائج الدعوة الفاطمية . وذيوع هذه الدعوة فى قبائل إفريقية البربرية هو الذى جمع كلمة القبائل حول عبيدالله المهدى ، وهو الذى مهد لقيام الدولة الجديدة

والخلاصة ان فكرة الدعاية التى تتبوأ فى النظم السياسية والاجتماعية الحديثة ، ولا سيما نظم الطغيان الفاشستية ، مكانة خاصة ، وتعتبر من أقوى أسلحة الطغيان فى عصرنا ، ليست جديدة فى ذاتها أو غاياتها ، وان كانت جديدة فى وسائلها ، وقد عرفتها الدول الاسلامية قبل الف عام ، واتخذت على يد الخلافة الفاطمية أذكى وابرع وانفذ أساليبها

محمد عبد الله عنان

(١) صبح الاعشى ج ١٠ ص ١٢٤ وما بعدها

فى الأدب المقارن

الرومانسية والكلاسية

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

ينشأ أدب الأمة المتبدية ساذجا بسيطا صريح التعبير قريب المتناول ، مطلق السجية فى الإعراب عن الشعور الإنسانى ، وتظل له هذه السمة حينا ، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق إلى حياة المدينة ، بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية ، فيرتقى الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغواره ، بيد أن الحضارة المادية التى توفرها المدينة لها كنهها ولا توفرها الطبيعة للمتبدين ، وربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم ؛ وكذلك الثقافة العقلية التى فى ظلها يرتقى الأدب رقيا عظيما ربما زيفت على الإنسان شعوره ، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على إفساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الإحساس الصادق ، وتكبيله بالتقاليد والأوضاع ، وتضييق حدوده وسد آفاقه ، وإيلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعانى

إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعى التقليدى انحط ولم يعد يسير إلا من تدهور إلى تدهور ، وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرقى منه وأصدق ، ولم يعد للأدب الذى غلبت عليه الصناعة من سبيل للنهوض ، إلا الرجوع إلى الطبيعة والاقتباس من الأدب البدوى المرسل الطبع ، والاطلاع على آداب الأمم الأخرى التى لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة ، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجمانا صادقا مبينا لها ، وبغير تلك العوامل الخارجية هيهات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته ، وإنما يزداد إمعانا فى التكلف السمج جيلا بعد جيل ، وإغراقا فى اختراع كاذب الأخيلة والأحاسيس ومزجها بألاعيب الألفاظ ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يسيغه ذوق أو يقبله عقل

فحياة الطبيعة المطلقة فى أعتها ، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة ، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيرا خاصا ، ولكل منهما مزايا هى قادرة على إبداعها الأدب : تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعيد آفاقها وروائع أسرارها ومخاوفها ،

وتمنحه المدينة وسائل التفكير العميق والنظر الثاقب والطموح إلى المثل العليا ، وأسباب الإنشاء الأدبي الفني والجهد الأدبي المتصل ، والتفنن في ابتكار صور الأدب وأوضاعه ، والخير كل الخير أن يأخذ الأدب من كلتا الناحيتين بنصيب ، والأدب الذي اجتمع له رحب الطبيعة وحرارة شعورها وجمالها ، إلى ثقافة المدينة ووسائل التوفر الأدبي فيها ، أدب لاشك بالغ من الرقي غاياته ؛ أما الأدب المتبدي فيظل على صدقه وجماله قاصرا ساذجا ، وأما أدب المدينة الذي بالغ في الانغمار في جوها وأهمل جانب الطبيعة ، فسائر إلى الفساد والانحلال لا محالة

والرومانسية هي الصفة التي ينعت بها عادة الأدب الذي يؤثر جانب الطبيعة ، ويحفل بمظاهر عبادتها والتأمل في ظواهرها ووصف مشاهدها والسبح في آفاقها ، يؤثر كل ذلك على اللفظ فلا يهتم بهذا إلا بقدر ما يستخرجه في إيضاح أغراضه ، وعلى حياة المدينة فلا تستغرق شؤون السياسة وعلاقة رجله برجالها ورجال "بلاط والحرب كل جهده والتفاته ، ولا يصرفه الحاضر عن الولوع بالماضي والتأمل فيه وفي المستقبل ، ولا ريب أن ذلك لا يعني إهماله لجانب الحضارة والثقافة ، بل هو بهما شديد الولوع يدرس ماضيهما ومستقبلهما شديد التلهف ؛ والكلاسية هي النعت الذي يطلق على الأدب الذي استغرقته حياة المدينة وشغلها عن جانب الطبيعة وانغمر فيها رجاله ، في مجتمعها ومنتدياتها ومعاركها السياسية والحزبية والشخصية ، وآثر التأنق في اللفظ والشكل الأدبي وكمكف العاطفة فحل محلها الذكاء والبراعة واللباقة ، وضيق مجالات القول وحدد أغراضه ، وكل هاتيك صفات ولوازم تعلق بالمجتمع المترف وتنعكس عنه في الأدب

وقد كانت الصفة الرومانسية هي الغالبة على الأدب الإغريقي في عهد عظمته ، لأنه ترعرع في مجتمع قريب من البداوة ، وفي حياة شديدة النشاط مطردة الحركة ، تجيش بالمغامرة والجلاد ، وفي حرية في الفكر والسياسة . أما الأدب اللاتيني فكان أكثر اصطباغا بالكلاسية لأنه لم يبلغ ذروته إلا في ظل الملكية المطلقة والامبراطورية الموطدة المستقرة . فكان أدب مدينة وثقافة متأنقة ، واشتهر أعلامه كفرجيل بإحكام الأسلوب والتشبث بمبادئ وتقاليد أدبية خاصة ، وما زالت إلياذة هومير وإلياذ فرجيل موضوع مقابلة من هذه الناحية . وكان أدباء الإنجليزية أكثر احتفالا باللاتينيين واقتداء بهم في العصر الكلاسي في الأدب الإنجليزي ، كما كانوا في عهده الرومانسي أميل إلى اليونان وأكثر تغنيا بآثارهم ، وبعدم اطلاع الأدب العربي على الأدب اليوناني فقد هذا العنصر الرومانسي الذي أصبح في حاجة إليه ، حين انتقل إلى المدينة وشغل بآثار الحضارة والثقافة

وقد كانت الرومانسية هي الصفة الغالبة على الأدب الإنجليزي في العصر الإليزابيثي ؛ ففي ذلك العهد كانت البساطة والخشونة تسودان المجتمع والبلاط ؛ والحركة والنشاط والتطلع تتجلى في شتى نواحي الحياة : في العلم والأدب والكشف والمخاطرة والحرب . كان عهد نهضة تتحفز وتستشرف إلى الجديد وترمي إلى التوسع ، لا تقنع بالقليل الحاضر ولا تقبل القيود والحدود ؛ وزمن شباب يولع بالقوة والجلاد ويبرم بالأثار والأقياد ، فهو لا يرضاها في الأدب ؛ ومن ثم جاء أدب ذلك العصر غزير المادة متلاطم العباب مترامي الآفاق . جياشا بشتى العواطف والمعاني ، حافلا بمختلف الأوضاع الأدبية والمذاهب الفنية ، لم يتقيد رجاله بتقاليد فنية غير معقولة : ففي حين تقيد أدباء الفرنسية بالوحدات الثلاث التي أثرت عن الدرامة الإغريقية ، انتفع الأدب الإنجليزي بخير ما في تلك الدرامة وضرب بتلك الوحدات عرض الحائط ؛ ولم يتقيد بألفاظ خاصة في الشعر ، مما أصبح فيما بعد يسمى « الألفاظ الشعرية » ، بل زاد على استعمال كل ما في لغة الكتب أن اقتبس من لغة العامة واصطنع بعض ألفاظ اللغات الأجنبية ، واشتق ما راقه من ألفاظ . وأخرج هذا العصر الحافل كبير شعراء الإنجليزية شكسبير ، وأنجب بجانبه أحد كبراء شعرائها سبنسر ، وامتد هذا العصر حتى انتهى بظهور علم ثالث من أعلامها هو ملتون

تصرم ذلك العهد المملوء بالحرية والنشاط والجرأة والفتوة ، وتلاه عصر كلاسي طويل ، بين أواخر القرن السابع عشر وأواخر القرن الذي يليه ، خمدت فيه روح المغامرة والتطلع التي كانت متنبهة في عصر اليزابث ، واستراح الناس إلى حياة المدينة ومنتدياتها ، وانغمر الأدباء في المعارك الأدبية فيما بينهم ، فكان نزاع بين كل من دريدن وأديسون وستيل وديفو وسويفت ومعاصريهم ، محتدم حينا ومترفق حينا ، ومعلن تارة ومستتر أخرى ؛ وانغمروا كذلك في المشادات السياسية وانضووا تحت ألوية الأحزاب ، وشجعهم رجال تلك الأحزاب على الانخراط في سلكهم والذود عن مبادئهم بأقلامهم ، فكان سويفت في صف المحافظين ، وأديسون في جانب الأحرار ، وكان ستيل يختلف من هؤلاء إلى أولئك . وخلا أدب ذلك العصر أو كاد من ذكر الطبيعة وجمالها ، وحتى أولئك الأدباء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار الأجنبية ، لم تكن تحرك نفوسهم مناظرها الجديدة ، فكانوا يتناولون في رسائلهم إلى أصدقائهم في الوطن شتى

المواضيع ماعداها . واهتم أدباء ذلك العهد باللفظ كل اهتمام وقدموه صراحة على المعنى ، وجعلوا للشعر ألفاظا لا يتعداها ومواضيع لايتخطاها ، واتخذوا للشعر وزنا واحدا مزدوج القافية لم يكد أحد ينظم فى سواه ، وقلدوا الأقدمين من أدباء الاغريقية واللاتينية ونقادهما ، وانصاعوا لمبادئهم انصياعا أعمى ؛ وبهذا كله ضاقت حدود الادب ضيقا شديدا ، وأرهقه التكلف وقدحته القيود ، فسار إلى الانحلال

وزعيم هذا المذهب الكلاسى الذى بلغ أوجه على يديه هو بوب الذى نال الغاية من إحكام اللفظ ، وقد قال عنه بعض مترجميه إن شعره ليس إلا نثرا جيد النظم ، وذلك حق : فهو يتناول فى شعره مواضيع هى أقرب إلى النثر وأبعد عن الخيال والشاعرية ؛ وكان يسمى بعض قصائده « مقالات » ومنها مقالته فى النقد التى نظم فيها مبادىء المذهب الكلاسى فى الأدب ونقده ، فظلت مرجعاً لمن تلاه من شعراء المذهب ، ومنها يقول : « تعلم إذن التقدير الحق لمبادىء الأقدمين ، فحاكاتها هى محاكاة للطبيعة ، فتلك المبادىء القديمة — التى إنما اكتشفت ولم تخترع — إن هى إلا الطبيعة ؛ غير أنها الطبيعة منظمة مهذبة » . وقد ترجم بوب إلياذة هوميروس ترجمة قدسها معاصروه ، ولكنها قلما تذكر الآن أو يعتمد عليها أو تعد صورة صحيحة لشعر هوميروس ، إذ كان من المستحيل على أديب مشبع بالروح الكلاسى أن يخلص إلى روح الشاعر الاغريقى الرومانسى ؛ ثم دبت فى المجتمع الانجليزى روح جديدة ، وانتعش الأدب الانجليزى من خموله باطلاعه على آداب الأمم الأخرى الناهضة كالأدب الالمانى ، والعودة إلى صدر الطبيعة الرحب الحافل بالأسرار والحياة والوحى . تمخض كل ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل الذى يليه عن نهضة رومانسية جديدة فكمت الأدب من عقاله ونبهت الشعر من غفوته ، ورحبت آفاقه وبسطت جوانبه ، وسبحت به فى آماد الكون والطبيعة والانسانية ، وأنجبت هذه النهضة جهرة أخرى من أفذاذ الأدب الانجليزى : أنجبت وردزورث وبليك وكولردج ، ثم بيرون وشلى وكيتس ، ثم تنيسون وبراونتج ، عدا من أخرجت من أفذاذ النثر الذين جاء نثرهم حافلا بمظاهر النهضة الجديدة ؛ ولا غرو : ففى العهود الرومانسية يتجلى الروح الشعرى حتى فى النثر ، وفى العصور الكلاسية يفيض الروح الشعرى حتى فى النظم ؛ وما تزال تلك النزعة الرومانسية ملحوظة فى الأدب الانجليزى ، على ما داخله من نزعة واقعية ، وإقبال على درس مسائل المجتمع كافة

والعصر الرومانسى فى الأدب العربى هو ولا شك عصر الجاهلية والعهد الراشدى وصدر العصر الأموى : فى تلك العهود وكان المجتمع العربى أدنى إلى البساطة والتبدى ، وكان الأدب مرسل السجية صادق التعبير عن خلجات النفوس : من حزن وطرب ولذة وألم ، وحب وبغض وحماسة ووصف ، خاليا فى أكثر نواحيه من مظاهر التكلف اللفظى أو التعمل فى المعنى أو التصنع فى الموضوع . وما تزال لحكم بعض الأعراب والأعرابيات ومراثيهم ، وحماسيات قطرى بن الفجاءة وغزليات جميل وقيس ، روعة فى النفوس وغبطة شاملة ، لصدورها عن طبع سليم وشعور صميم ؛ هذا على رغم بساطة ذلك الأدب وخلوه من مظاهر التثقف والتعمق فى التفكير

تجرم ذلك العصر بطول عهد العرب بالحضارة والثقافة ، ومهدت حضارة المدينة وثقافتها من أسباب القول ودواعى النظم ووسائل التفنن الأدبى ما لم يتوفر فى البادية ، فنشأ من ذلك أدب جديد يفوق أدب العصر السالف تعدد مواضيع وعمق نظرة ووفرة محصول ، وتجلى ذلك فى خير آثار ابن الرومى والطائى والمتنبى والمعرى ، والجاحظ والبديع والجرجانى وأضرابهم . على أن الأدب فى طوره هذا انغمر فى جو المدينة انغمارا تاماً ، فكان هذا عهداً كلاسيا صميما : فيه تزايد ولوع الأدباء تدريجاً باللفظ . واحتفاؤهم به ، ثم استعبادهم أنفسهم له وللأوضاع والمبادىء الموروثة عن المتقدمين . وضاقت مواضيع القول رويداً رويداً وكلها التكلف والاغراب ، وتجمع الأدباء حول موائد الأمراء ورجال السياسة والحكم والحرب ، وخاضوا غمار مشاحناتهم ، وتشاحنوا هم أنفسهم فيما بينهم ، وهى مشاحنات تذكرنا بحملات سويفت وديدن على الوزراء والقواد فى عصرهما ، وحملاتهما على غيرهما من الأدباء ، فمن هجاء الوزراء قول دعبل فى وزير المأمون :

أولى الأمور بضيعة وفساد ... أمر يدبره أبو عبـــاد
يسطو على جلاسه بدواته ... فضمخ بدم ونضح مداد

ومن تهاجى الشعراء قول ابن الرومى فى البحترى :

أف لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب
البحترى ذنوب الوجه نعرفه ... وما عهدنا ذنوب الوجه ذا أدب

وقول المتنبى فى معاصريه :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ... ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول ؟
وكم جاهل بى وهو يجهل جهله ... ويجهل على أنه بى جـــاهل

فى ذلك العصر الكلاسى الطويل أعرض الشعراء إعراضاً يكاد يكون تاماً عن الطبيعة وحديثها ومجاليها ، وأقبلوا على حياة المدينة أى إقبال . وما منهم من لم تعمل أبعد من أن ينال النجاح فيما تهيئه

لأنانيتها من أسباب اللذة والمتعة والشهرة ، فكان منهم طامح إلى الملك كالمتنبي والشريف الرضي ، وحريص على الوزارة كالصاحب وابن العميد ، وراغب في الولاية حظي بها كالطائي وقصر عنها كابن الرومي ، ومغتبط بالحظوة والمنادمة كأبي العتاهية والبحتري ، وغير هؤلاء وأولئك ممن سعوا سعيهم ولم ينالوا مثل شهرتهم ؛ وممن طمحوا فيما هو دون ذلك من متعات الحياة . ونظير ذلك كله تراه في العصر الكلاسي الانجليزي سالف الذكر : فقد تقلب دريدن بين الأحزاب وحرص على الحظوة في البلاط ، وتدرج أديسون في المناصب حتى صار وزيراً للخارجية ، ولم يقنع سويفت بما تولى من مناصب في الكنيسة ، وكان إخفاقه في مطامعه البعيدة أحد أسباب نقمته وتشاؤمه

وتجلت هذه الصفة الكلاسية في الأدب ذاته : حددت مواضيعه وقصرت على ما اتصل بالحاضر القريب من شؤون الحياة في المدينة ، وأهملت المواضيع الرومانسية الصبغة ، كالالتفات إلى الماضي واستعراض حوادثه الطريفة واتخاذها مادة للنظم والنثر ، ومعالجة خرافاته واستلهامها مابها من معاني الجمال والعظمة والبطولة ، وأهملت أحاديث الرحلات وأوصاف البلاد البعيدة والأصقاع المجهولة ، ما وجد منها في الحقيقة وما يتخيله الشاعر ، وكمكف الخيال ونبذت آثاره من عالم الأدب .

خلا الأدب العربي في ذلك العهد من كل هذه المواضيع ، وهي من صميم الشعر ولباب الفن وجوهر الأدب إذا ما تحضر أهلوه واتقفوا بالثقافة ، وإنما تركت هذه المواضيع الجليلة للأدب العامي ، فظل الأدب الفصيح أدباً كلاسياً وصار الأدب العامي هو الممثل للرومانسية

دام ذلك العصر الكلاسي الطويل في الأدب العربي طوال عهد ارتقاء الأدب ، أي زهاء ثلاثة قرون ، ثم طوال عهد انحطاطه أي إلى العصر الحديث ، لم تعقبه خلال تلك الأجيال المتوالية نهضة رومانسية تخفف من غلوائه وتصلح من فساده ، وتقيم ما اعوج من مبادئه الأدبية ، وتعود به إلى الطبيعة التي هجرها واستغرق في النوم في أحضان المدينة : لم تنبعث فيه تلك النهضة التي انبعثت في الأدب الانجليزي في أعقاب القرن الثامن عشر ، حين بلغ العهد الكلاسي مداه من التحكم في أساليب الأدب . وبلغ الأدب الدرك من الاسفاف والابتذال ؛ ذلك لأن الأدب العربي كانت تعوزه تلك العوامل التي تساعد على النهضة وتعاون على الرجوع إلى الطبيعة وتنبت الميل الرومانسي ، فكان استمرار النزعة الكلاسية المحتدمة في الأدب أكبر أسباب تدهوره الطويل .

فالأدب العربي لم يكن على اتصال بآداب أجنبية فيأخذ عنها حب الطبيعة وإيثار البساطة ، ويلتفت باطلاعه عليها إلى حقائق الحياة الكثيرة التي أهملها ، وهو لم يكن يتنازل فيتصل بآداب العامة وأقاصيص الرعاة والرعاة ، التي تنسم فيها نسائم الطبيعة والبساطة والشعور الصميم ، وهو لم يكن يرجع إلى ماضيه الروماني الذي سبقت الاشارة إليه ، فينظر فيه نظرة حرة مميزة ، تستخلص اللباب وتنظر من خلاله إلى حقائق الحياة ، إنما يرجع إليه طلبا للاسلوب واللفظ ، دون المعنى والموضوع ، كان بعده كنز لغة فصيحة الأساليب والألفاظ لا كنز حقائق منتزعة من الحياة الصميمة . فاذا نظر إلى المعاني حاول حكايتها وتقليدها تقليداً كاملا على ماهي عليه ، أي حاول الأديب أن يحيا في أدبه حياة البدو ويشعرهم بشعورهم كله ، وكان الأجدر أن ينبذ ذلك جميعا ، ولا يهتم إلا بصدق تعبير أولئك المتقدمين عن شعورهم ، ووجوب صدقه في تعبيره عن شعوره الصحيح ، في عصره وحياته المخالفين لما كان قبله

ظل هذا المذهب الكلاسي التقليدي سائدا الأدب العربي ، يقلد المتأخر المتقدم ويزيد عليه تقييدا وتضييقا في مجالات القول وأوضاعه ، مادام الأدب محجوبا عن غيره من الآداب بعيدا عما جهله أو تجاهله من حقائق الحياة والأدب ، حتى أتيح له الاتصال بالآداب الغربية في العصر الحديث ، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجا غبار التقليد والتقييد اللفظي والمعنوي ، وفتن بحقائق الكون ومحاسن الطبيعة التي كان عنها في شغل ، وتناول شتى المواضيع التي كان حرمها على نفسه ، وبالجملة تقشع عنه عصره الكلاسي الطويل ، وأشرق عليه فجر نهضة رومانسية جديدة .

فخري أبو السعود

رحلة

في بلاد العربيـــة السعيدة

تأليف : نزيه مؤيد العظم بك

وصف مسهب لبلاد اليمن وسبأ ومأرب ونصوص المعاهدات التي عقدتها الدول مع اليمن يقع في ٤٤٠ صفحة من القطع الكبير مزدان بالصور وهو الكتاب العربي الوحيد في بابه ويطلب من : —

مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه

بجوار سيدنا الحسين بمصر

ثمن النسخة ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد